

أَسْرَارُ الضَّمَائِرِ أَوْرَأَيْتَ فِي جُذُورِ الضَّمَائِرِ الْعَرَبِيَّةِ

الاستاذ محمد محمد الخطابي

وجميل منه للمرة الثالثة ان يخدم بذلك العربية وابناءها بتطرقه لهذا الموضوع الحيوى بأسلوب سهل ميسر لا يتطلب كبير عناء لادراك الفكرة الاساسية التى كتب من اجلها رايته في جذر الضمائر العربية ..

ولكن سيكون اجمل من هذا كله ، لو انه اشار ضمن مقاله الى من سبق وعالج هذا الموضوع بالذات من المحدثين ممن يعرفهم او لابد انه قرأ لهم في مجلة « اللسان العربى » التى يعد الدكتور التونسي من ابرز كتابها « واعنى به الباحث اللغوى الكبير الاستاذ عبد الحق ناضل واذكر اتنى قرات ما كتبه الاستاذ عبد الحق ناضل عن هذا الموضوع منذ ازيد من عشر سنوات ، اى منذ عام 1966 بالتحديد ! حيث اطلعت على اول بحث له في هذا القبيل في العدد الرابع من مجلة « اللسان العربى » في مقالة بعنوان : « لمحات من التأثيل اللغوى » ثم قرات له كذلك — عن نفس الموضوع — في العدد الخامس 1967 من نفس المجلة المذكورة في مقالة بعنوان : « أسرار

اطلعت على مقالة الاستاذ محمد التونسي (استاذ اللغات الشرقية والسامية المساعد بجامعة بنغازى) التى ضمنها رايته في جذر الضمائر العربية حيث تعرض الى اصل هذه الضمائر فردها جميعا الى الهمزة (ا) بصفتها اقدم حرف نقطه الانسان الاول ، وضرب لذلك عدة امثلة بطريقة مبسطة لا يصعب على القارئ العادى ادراكتها وفهمها .

وجميل من الدكتور التونسي ان يتعرض لهذا الموضوع الذى يعد في الواقع من اطرف الموضوعات اللغوية وأصعبها واكثرها اثاره لغصوص اللغويين على اعتبار أهميته وخطورته بالنسبة لباقي المسائل اللغوية الأخرى .

وجميل من الدكتور التونسي كذلك ان يساك في هذا الموضوع طريقة « خير الكلام ما قل ودل » حيث استطاع ان يقدم في اربع صفحات من خط اليد هذه المسألة الشائكة التى بسطها عبد الحق ناضل في (105) صفحات من كتابه « مغامرات لغوية » .

القديم ، المجهول ، الذى جعل الهمزة اول الحروف العربية لانه الصوت الطبيعي الذى ينطعه البشر في جميع الاتوام ، منذ اقدم العهود فيما يظهر ، ويستعمله الانسان العربى — ما يزال — في التعبير عن مختلف حالاته الانفعالية والبيانية ، من اين ، « آه » ، وتعجب (آه !) ، واسترادة (ايه !) ، وضحك (آه ، آه ..) ، ونداء (آه ، آه ،) ، واستفهم (آه) ، وايجاب مع القسم (آى) ، حتى بعض الحيوانات تنطق بالهمزة احيانا عند ما تصبح ، فتيمز صوتها اي تبدؤه بالهمزة » .

وبين للقاريء مقدار التشابه بين مضامين هاتين العبارتين . ولا بأس كذلك ان نورد عبارة اخرى لاستاذ عبد الحق فاضل في مجال حديثه عن الهمزة كضمير عام يقول : (في نفس الكتاب ص 255 ، وبرهانا على ما ذكرنا من أن الانسان العربى الاول استعمل الهمزة ضميرا عاما للدلالة على مختلف الاشخاص او الاشياء نذكر ان الانكليز ما زالوا يستعملون تلك الهمزة بصورةها البدائية (آى ١ بمعنى : أنا ، وينطقتها الايطاليون بكلمة *Ti* بينما *yo* — *io* ، أما الاسپان فينطقونها بحذف الهمزة (يو — *yo* في بعض اللهجات و (جو — *jo* في الفصحي بينما ينطقتها الفرنسيون *je* — *je* أما (ايکو — *ego* اللاتينية فيظهر أنها من *io* الايطالية وقد ورد هذا الضمير في الصينية — وبالطبع — بصيغة (وو *wō* الخ ، الخ .

ولنتعمن كذلك هذه العبارة القصيرة لدكتور التونسي « اذا اراد العربى ان يتكلم عن نفسه لفظ الحرف « آ » وأشار بيده الى نفسه ، اذا خاطب من امامه قال « آ » وأشار اليه كما انه اذا اشار الى الغائب قال « آ » وأشار بأصبعه الى الخلف . ولا زالت (كذا) الاشارة بالبنان تقوم مقام الضمائر حتى الان الخ .

ويبدو ان هذه العبارة مقتبسة بشيء من التحوير لا يكفى لينسينا انها مقتبسة من قول الاستاذ عبد الحق فاضل : « لهذا يبدو لنا ان الانسان العربى

الضمائر » وأخيرا في كتابه المعروف : « مغامرات لغوية » . اقول ، كان على الدكتور التونسي — على الاقل — ان يشير في مقاله الى ان الاستاذ عبد الحق فاضل قد سبق الى الكتابة عن هذا الموضوع حيث عالج بالتفصيل نفس المسائل التى وردت في مقالة الدكتور التونسي مكان حرفا به الا يغفل هذه الملاحظة خصوصا وأنه يعالج ذات المسألة بل انه ساق لها الكثير من الامثلة التى جاء ذكرها في بحوث الاستاذ عبد الحق فاضل في هذا الصدد والتى لا بد انه اطلع عليها او على الاقل على واحد منها سواء المنشور في العدددين الرابع او الخامس من « اللسان العربى » او في كتابه المؤلف — السابق الذكر — « مغامرات لغوية » الذى كان له الصدى الطيب بين لغویي العرب المحدثين ، ولكن اكون موضوعيا ولا اكتفى بالإشارة النظرية ارى من الضروري ان اعتذر بعض المقارنة السريعة « بالحرف » بين ما ورد في مقالة الدكتور التونسي وبين ما كان قد كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع منذ عشر سنوات او تزيد .

فإذا تناولنا مقالة الدكتور التونسي وتبعدناها سطرا سطرا تبين لنا مقدار التشابه بين الأفكار لا اقول العبارات التي جاءت فيها عن جذور الضمائر العربية .

ولنبتدئ بعبارة الدكتور التونسي التالية : « ومن البديهي ان يكون الصوت « آ » اول حرف نطقه انسانا الاول في الجزيرة العربية . ولهذا فانه استخدمه في النداء والاستفائية والترحيم والتبيه والتحث والضجر والتصديق والاجابة . فإذا تالم الانسان نطق بلاوعي منه لنقطة « آى » اذا اراد التصديق على أمر قال « آ » او « آ » حسب المنطقة التي نشأ فيها وذا استفهم على أمر نطق « ايه ؟ » والهاء للوقف طبعا ، وهكذا » .

والىك عبارة الاستاذ عبد الحق فاضل من كتابه « المغامرات » ص 249 حيث يقول في هذه النقطة بالذات : « كان موقفا جدا ذلك المثقف العربي

اللغات السامية بهذا الاسلوب الشيق الجميل ، والعرض الممتع الموجز كذا تتوقع منه ان يشير من قريب او بعيد الى ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع بالذات حيث اوضح بالتفصيل كل ما يتعلق بهذه الضمائر من اسرار كما تحدث باسهاب عن نشوئها وتسلسل بعضها من بعض في اللغة العربية واللغات الازية وليس قصدنا من وراء كتابة هذه الملاحظة الانتقاد من مقالة الدكتور التونسي وانما النزاهة العلمية تقتضى منا ان نلفت نظر القارئ الكريم الى هذا الامر ، ومع تقديرنا الكبير لجهود الرجلين في خدمة لغتنا العربية الحبية التي قدما لابنائهما الكثير من البحث الجاد في شتى الميادين العلمية واللغوية ، نتمنى لهما مزيدا من النشاط والتوفيق والعطاء المثمر .

مزج لغة الصوت بلغة الضوء فأخذ يقول (آ) ليتبه الآخرين اليه ويشير الى نفسه يعني (أنا) ، او يقول (آ) مشيرا الى مخاطبه يعني (أنت) ، او مشيرا الى شخص آخر او شيء ما يعني : (هذا ، ذلك ، هو ..)

ولكى نعنى القارئ الكريم من هذه الاطنبات خير له ان يراجع ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع بالتالى في العدددين الرابع والخامس من « مجلة اللسان العربى » او ما جاء في صفحة 247 من كتابه « مغامرات لغوية » ثم يقارن ذلك بما كتبه الدكتور التونسي في المقالة المنشورة في هذا العدد من هذه المجلة .

ونحن اذ نقدر للدكتور محمد التونسي اهتمامه بهذا الموضوع وتطرقه فيه كذلك لبعض الضمائر في